# كتاب الرد على النحاة
## قراءة في الفكر النحوي لشوقي ضيف

د. عشري محمد علي(*)

لكل لغة من اللغات قواعدها التي لا يمكن أن تقوم بدونها، ولا يتسنى لأي متعلم أن يتقن لغة ما دون أن يتوفر على دراسة قواعدها، ومعرفة أصولها، ولا توجد لغة لا تحتاج في تعلمها إلى بذل الجهد في تحصيلها وفهمها.

هنا يأتي دور المنظرين للغة في تبسيط قواعدها، واستخلاص مبادئها دون الإخلال بأصولها العلمية، أو المساس بخصوصيتها، كما يظهر دورهم في صياغة نحوها صياغة منهجية تخضع لنظام علمي متكامل لا ينشغل بالفروع ويترك الأصول.

وإذا كنا نؤمن بأنه لم تُخدم لغة من اللغات مثلما خدم النحويون القدماء لغة القرآن - فقد بذلوا جهدًا ضخما في المحافظة على هذه اللغة من جميع جوانبها - فإن هذا لا يمنعنا من القول بأن علم النحو قد اختلط بآراء عديدة لا تفيد كثيرا في دراسته، ومن هنا تعرض النحو قديمًا وحديثًا لما لم يتعرض له علم آخر، فقد رُمي بأنه علم صعب، ورُمي النحويون كذلك بكثرة اختلافاتهم وتشعب آرائهم تشعبًا تكاد تُنسى معه القواعد الأساسية.

من ثم كان النحو في أمس الحاجة إلى إعادة النظر فيه ومحاولة تجديده، وهذا ما دعا إليه بعض النحويين، من هؤلاء ابن مضاء قديمًا، والدكتور شوقي ضيف حديثًا، وكان طبيعيًا - والأمر كذلك - أن يختار شوقي ضيف كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي ليكون أول أعماله في مجال التحقيق، واختيار المرء جزء من عقله.

لم يكن اختيار شوقي ضيف لهذا الكتاب اختيارًا عشوائيًا، وإنما كان اختيارًا فريدًا من نوعه، وكان له مغزى كبير، فشوقي ضيف لم يكن يختار المخطوطات التي يحققها بدون خطة أو تفكير، وإنما كان يُراعي في اختياراته أن تعالج حاجة علمية مُلحة في مجالها.

إن الناظر المدقق فيما شغل به شوقي ضيف من عمل في مجال التحقيق يرى أنه لم يكن يختار المخطوطة التي تسد ثغرة من ثغرات العلم الذي تنتمي إليه، وأنه لم يكن

---

(*) باحث بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

يحقق من أجل التحقيق وحده فحسب، وإنما من أجل حاجة هذا العلم لهذه المخطوطات بالذات، ولما يمكن أن تقوم به من دور فى تطوير هذا العلم، ولعل فى هذا ما يُفسر كثرة إنتاجه العلمى فى التأليف إذا ما قورن بأعماله فى التحقيق، فهو فى النحو قد حقق كتابًا واحدًا، بنى عليه نظريته ومنهجه فى كل ما كتبه عن تجديد النحو العربى، ولا يُقلل ذلك من قدر التحقيق عنده، وكل ما فى الأمر أنه كان يُحسن اختيار النصوص بما يجعلها أكثر خدمة للعلم الذى تعالجه ، وهذا هو المطلوب.

تتضح القيمة العلمية للكتاب المحقَّق من خلال ملمحين مهمين، الملمح الأول: انفراد الكتاب بموضوع جديد، يقول شوقى ضيف فى ذلك: «منذ نحو خمسة وثلاثين عاما عثرت فى فهرس المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية على كتاب بعنوان الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى، فطلبته للاطلاع عليه، وإذا هو مخطوطة مليئة بالتصحيف والتحريف، غير أن طرافة موضوعها أغرتنى بتحقيقها ونشرها؛ إذ رأيت ابن مضاء فيها ثائرًا على نظرية العامل فى النحو ثورة عنيفة» [١]. والملمح الثانى هو المكانة العلمية التى يحظى بها مؤلف الكتاب، يقول السيوطى عن ابن مضاء: «أخذ عن ابن الرماك كتاب سيبويه تفهمًا وسمع عليه وعلى غيره من الكتب النحوية واللغوية والأدبية ما لا يُحصى ، وكان له تقدم فى علم العربية واعتناء وآراء فيها ومذاهب مخالفة لأهلها»[٢].

والكتاب وإن كان صغير الحجم إلا أنه كبير الفائدة، وقد أحدث ضجة كبيرة حين خرج إلى حيز الوجود، خاصة بعد إهمال النحاة القدماء له من ناحية، وفى الوقت الذى فشل فيه النحاة المحدثون فى عرض قضيتهم على الناشئة من ناحية أخرى، يتحدث شوقى ضيف عن ذلك قائلا: «غير أن خالفيه (ابن مضاء) من النحاة فى زمنه وبعد زمنه صمُّوا آذانهم عن دعوته»[٣]، ويقول فى موضع آخر: «غير أن هذا النداء ذهب صرخة فى واد، فلم يستجب له نحاة المشرق ولا نحاة المغرب فى العصور الوسطى، وظل الناس وظلت الأجيال تعانى فى قراءة النحو مشقات هائلة»[٤].

---

(١) ابن مضاء، الرد على النحاة، تحقيق: شوقى ضيف. الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢م، ص ٣.

(٢) جلال الدين السيوطى، بغية الوعاة، الطبعة الأولى، الخانجى، ١٣٢٦هـ، ص ١٣٩.

(٣) شوقي ضيف، تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده، الطبعة الثانية، القاهرة: دار المعارف ١٩٩٣، ص ٢٥.

(٤) ابن مضاء: الرد على النحاة ، مدخل المحقق، ص ٤٧.

يقع الكتاب فى مائة وأربعين صفحة من القطع الصغير، سبعون صفحة لمتن الكتاب، وسبعون أخرى جعلها المحقق مدخلا للكتاب، وهو مدخل لا يقل أهمية عن الكتاب نفسه، و«لا بأس من أن يتوسع المحقق أحيانًا فى مقدمة الكتاب الذى ينشره إذا كان ذا فائدة علمية طريفة أو فوائد جليلة، وخاصة إذا كان من شأنها أن تحدث تأثيرا فى دراسة علم من العلوم، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى»[١]، ولقد كان لهذا المدخل تأثير كبير فعلا فى حقل الدراسات النحوية بعد ذلك، يقول شوقى ضيف: «حرى بى أن أذكر أننى قدمت إلى مؤتمر مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٧ مشروعًا لتيسير النحو على ضوء ما رسمته فى مدخل الكتاب من تصنيف جديد للنحو، وتدارست المشروع لجنة الأصول فى المجمع دراسة علمية قيمة ، وأقرت ـ وأقر معها مؤتمر المجمع فى سنة ١٩٧٩ـ أكثر جوانبه»[٢].

فى بداية الكتاب يناقش ابن مضاء نظرية العامل فى النحو العربى، وهى نظرية تقوم على «أنه لا بد مع كل رفع لكلمة أو نصب أو خفض أو جزم من عامل يعمل فى الأسماء والأفعال المعربة ومثلهما الأسماء المبنية»[٣]، كما ناقش ابن مضاء أيضًا ما ترتب على تلك النظرية من كثرة التقديرات المتكلفة، وكثرة العلل والأقيسة والتمارين والأمثلة غير العملية، مما لا حاجة للمبتدئين به بل يجعل النحو يستغلق على أذهانهم بسبب تشعب الأبواب النحوية وكثرتها، لقد أراد ابن مضاء أن يخفف من مبالغة النحويين فى هذه الأشياء، يقول: «قصدى فى هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه»[٤].

ويعترض ابن مضاء على نظرية العامل؛ لما تجره من كثرة التقديرات فى العبارات، «ولكى يوضح فساد نظرية العامل وأنها دفعت النحاة أحيانًا إلى رفض بعض أساليب العرب ووضع أساليب مكانها لا يعرفها العرب الجاهليون والإسلاميون، درس باب التنازع[٥] دراسة مفصلة موضحًا ما جلبه النحاة من صيغ معقدة عسرة لم ينطق بها العرب ولا وقعت فى أذهانهم»[٦]، ولذلك رأى ابن مضاء أن تحذف مثل هذه الأبواب من

(١) شوقى ضيف، البحث الأدبى، الطبعة السابعة، دار المعارف ، ١٩٩٢، ص ٢٠٤.
(٢) ابن مضاء، الرد على النحاة، مدخل المحقق، ص ٦.
(٣) شوقى ضيف: المدارس النحوية، الطبعة السابعة، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٩٢م، ص ٣٨.
(٤) ابن مضاء، الرد على النحاة، ص ٧٦.
(٥) هو الذى يجتمع فيه عاملان على معمول واحد، مثل: قام وقعد زيد، المصدر السابق، ص ٩٤.
(٦) شوقى ضيف: المدارس النحوية، ص ٣٠٥.

دراسة النحو، وقد تابعه شوقى ضيف فى هذا الرأى، يقول: «توقفت بإزاء باب التنازع وأخذت برأى ابن مضاء فى وجوب حذفه»[١].

ولعل ذلك يتضح بجلاء أيضًا فى باب الاشتغال[٢]، وفى افتراض بعض التمارين التى لا توجد فى اللغة، يقول ابن مضاء: «إن الناس عاجزون عن حفظ اللغة الفصيحة الصحيحة، فكيف بهذا المظنون المستغنى عنه»[٣].

وهذا ما ينادى به المنهج الوصفى فى علم اللغة الحديث، فهو يرصد الظواهر النحوية فى اللغة كما هى، ويبتعد عن التقدير والتأويل والتعليل، وقد تنبه شوقى ضيف إلى ذلك، يقول: «من المعروف أن واجب النحوى أن يسجل ما وجد فى اللغة فعلا من صيغ وعبارات، لا أن يفترض هو صيغًا وأحوالا للعبارات لم ترد فى اللغة»[٤]، ويتحدث فى موضع آخر عن تيسير النحو قائلا: «هو تيسير لا يقوم على ادعاء النظريات، وإنما يقوم على مواجهة الحقائق النحوية، وبحثها بطريقة منظمة، لا تحمل ظلمًا لأحد، وإنما تحمل التيسير من حيث هو حاجة يريدها الناس»[٥].

والحق يقال فإن كنا مع ابن مضاء فى ضرورة التخفيف من مبالغة النحاة فى التقديرات والتأويلات؛ لأنها تؤدى فى كثير من الأحوال إلى رفض بعض الأساليب العربية الصحيحة فإن نظرية العامل لا يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها من أهم السمات التى تميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات، ومن أهم نظريات النحو العربى، والأصل الأول من أصوله.

المهم أن شوقى ضيف كان مشغولا بقضية تجديد النحو وتيسيره، ولذلك عزم على تحقيق كتاب الرد على النحاة، وقدّم له بمدخل حلل فيه آراء ابن مضاء تحليلا وافيًا، ودافع عن رأى ابن مضاء، وبيَّن حاجة النحو إلى إعادة ترتيب أبوابه، ورسم خريطة جديدة للنحو العربى[٦].

---

(١) شوقى ضيف، تيسير النحو التعليمى، ص ٤٢.

(٢) هو الذي يُشغل فيه الفعل أو شبهه بضمير أو بملابسه عن العمل فى الاسم مثل «زيدًا كلمته»، شوقى ضيف ، المدارس النحوية، ص ٦٩.

(٣) ابن مضاء، الرد على النحاة، ص ١٤٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٥) المصدر السابق، ص ٦٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٤.

وزاد انشغال شوقى ضيف بالقضية ومعايشته لها بعد نشره لهذا لكتاب، وبذلك نراه يؤلف كتابًا بعنوان «تجديد النحو»، يقول فى مقدمته: «كان نشرى لكتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى سنة ١٩٤٧ باعثًا لى - منذ تحقيقه - على التفكير فى تجديد النحو بعرضه عرضًا حديثًا على أسس قويمة تصفِّيه وتروِّقه وتجعله دانى القطوف للناشئة[١].

ولقد اعتمد شوقى ضيف فى محاولته هذه على آراء ابن مضاء اعتمادًا كبيرًا ، فما من كتاب ألفه إلا واستضاء فيه بآراء ابن مضاء النحوية، وبعدما بسط شوقى ضيف فى مدخل كتاب الرد على النحاة القضايا التى عالجها ابن مضاء، «رأى أن يطبق نظرية ابن مضاء تطبيقًا عامًا على كل أبواب النحو، محاولا النفوذ إلى رسم تصنيف جديد له، يقوم على نفس الركنين اللذين أقام عليهما ابن مضاء دراسته لواو المعية وفاء السببية والاشتغال والتنازع، وهما: الانصراف عن نظرية العامل ومنع التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات، وتكاد كل محاولة فى تيسير النحو - بعد نشر هذا الكتاب - تكون قد اعتمدت عليه وعلى مدخله قليلا أو كثيرًا»[٢].

والحقيقة أن شوقى ضيف لم يقتصر على آراء ابن مضاء فحسب، وإنما أضاف إليها كثيرا مما يحتاج إليه علم النحو، فعلى سبيل المثال رأى أنه يمكن الإفادة من مباحث علم التجويد، وما يتعلق بنطق الحروف؛ ومن ثم جعله من مقدمات دراسة علم النحو، كما اقترح تصنيفًا جديدًا للنحو يقوم على ثلاثة أسس:

**أولها:** إعادة تنسيق أبواب النحو بحيث يستغنى عن طائفة منها برد أمثلتها إلى الأبواب الباقية.

**والأساس الثانى:** استضاء فيه بجوانب من آراء ابن مضاء، كإلغاء الإعراب التقديرى، والإعراب المحلى.

**والأساس الثالث:** ألا تعرب كلمة لا يفيد إعرابها أى فائدة فى صحة نطقها .

**والأساس الرابع:** وضع تعريفات وضوابط دقيقة لبعض الأبواب النحوية كالمفعول المطلق والمفعول معه والحال[٣].

(١) شوقى ضيف، تجديد النحو ، الطبعة الخامسة، القاهرة، دار المعارف، ٢٠٠٣م، ص ٣.
(٢) شوقى ضيف، البحث الأدبى، ص ٢٠٤.
(٣) شوقى ضيف، تجديد النحو، ص ٣، ٤.

نستنتج من كل ما سبق عدة أمور:

**أولا**: أن تراث الأجداد لا يمثل تاريخًا لا صلة له بالحاضر، وإنما يمكن أن يشارك هذا التراث بدور فعال فى حل المشكلات التى تواجهنا فى دراستنا المعاصرة ، ومن ثم انتفع شوقى ضيف بآراء ابن مضاء النحوية.

**ثانيا**: أن شوقى ضيف كان يرى أن تجديد النحو لا يُفرض عليه من خارجه وإنما لا بد من معايشة هذا التراث النحوى معايشة طويلة، وسبر أغواره لمعرفة الغث من الثمين، وهذا لا يحدث إلا عن طريق دراسة القديم دراسة متأنية.

**ثالثًا**: أن لكل لغة خصوصية تنغلق عليها، ولهذا فإن النظريات التى تُطبَّق على نحو العربية دون أن تراعى خصوصية هذه اللغة لا يُكتب لها النجاح، وكذلك الأمر بالنسبة للنظريات التى لا تضع فى الحسبان النظر إلى ما تركه الأسلاف وأهمية الاستمداد من هذا التراث الضخم، وتغض الطرف عن المحاولات التى بذلها القدماء من أجل خدمة هذه اللغة وتنقيتها من كل شائبة.

**رابعًا**: أن تجديد شوقى ضيف للنحو هو تجديدٌ من فهم التراث النحوى، ثم أراد أن يخلصه مما يعتريه من نقص أو يشوبه من قصور، وهذا يعنى أن دعوته كانت لخدمة التراث؛ لأنها استمدت مصادرها من تاريخ اللغة نفسها، وهو ما يجعله من العلماء الأفذاذ الذين خدموا تراث العربية، وبذلوا ما فى وسعهم من أجل المحافظة عليه.